

عن علاقات ألمانيا والإسلام: حيث لا صلة واحدة غير مشكلة

الكتاب: ألمانيا والإسلام
في القرنين التاسع عشر والعشرين
دار الفرات، بيروت 2007
المؤلف: عبد الرؤوف سنو

د. إلياس القطار

يقدم عبد الرؤوف سنو في كتابه عملاً أكاديمياً راقياً على مستوى عال من الموضوعية والمنهجية وسعة الاطلاع والتبحر في تاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر، في القرنين التاسع عشر والعشرين يضاها في أهم الدراسات الغربية.

على صعيد المضمون يحيط الكتاب بتاريخ العلاقات الألمانية الإسلامية عامة والعربية خاصة منذ سياسة الاندفاع نحو الشرق التي اختطتها ألمانيا لنفسها بعد توحيدها وتحويلها إلى قوة أوروبية عظمى ذات طاقة صناعية جبارة لا تزال حتى اليوم نقرأ بوجودها.

إذا كان المعيار في تقييم أهمية بحث ما مقدار ما يقدم من جديد على صعيد المضمون، فالواضح أن كتاب "ألمانيا والإسلام" قد حقق الغاية المرجوة. فالقسمان الأول والثاني منه يقدمان قراءة جديدة للموضوع في ضوء الوثائق الألمانية، والقسم الثالث هو تاريخ جديد إلى حد كبير لمرحلة لم تتم معالجتها إلا في أبحاث جانبية، أما القسم الرابع فهو أول مقارنة، على ما أعتقد، للمرحلة المعاصرة منذ ستينات القرن العشرين.

يتعاطى الكتاب مع ثلاث إشكاليات: الأولى هي مسألة التوفيق بين ألمانيا وسياستها الاستعمارية ومصالحها القومية وبين دعمها البلدان الإسلامية، والثانية في استخدامها خطاباً إسلامياً في الوقت الذي تعمل على اختراق السلطنة لصالحها؛ والثالثة هي في العلاقة المزدوجة بين ألمانيا الاتحادية والبلدان العربية من جهة ودعم إسرائيل من جهة أخرى.

يتألف الكتاب من أربعة أقسام: الأول يبحث في العلاقات بين ألمانيا والسلطنة ما بين 1871 و1918، والثاني يبحث في استغلال ألمانيا للسلطان عبد الحميد وللجامعة الإسلامية لتحقيق مشروعها الامبريالي، والثالث يعالج المشروع الألماني لجعل فلسطين وطناً لليهود المنصرين وموقع ألمانيا في لبنان إبان الانتداب والرابع يبحث صراع الدولتين: ألمانيا الاتحادية (الغربية) وألمانيا الديمقراطية (الشرقية) في مصر ولبنان منهيماً هذا القسم بالتوقف أمام مواقف المستشرق فريتس شتبات من الإسلام المعاصر.

بدأت السياسة الألمانية نحو الشرق نحو العام 1871 على خلفية علاقات ثقافية دينية سابقة لهذا التاريخ، ثم اتخذت منحى جديداً مع بسمارك والنمو الاقتصادي وتعاضم الرأسمال الألماني، فكان لا بد من انتهاز سياسة الاندفاع نحو الشرق لما يختزنه من قوة استراتيجية وسوق للصناعة والتجارة الناشئة وللأعمال الألمانية خاصة على صعيد سكك الحديد. ولتبسيط الأمور أمام التوجه الجديد اعتمدت ألمانيا الثقافة

والتبشير والتدريب العسكري والحفاظ على الدولة العثمانية أمام ضغط فرنسا وانكلترا عليها بعدما أضحى الشرق هدفاً استراتيجياً للأمبراطور وليم الثاني الذي تجاوز سياسة بسمارك الأوروبية ونحا إلى لعب دور عالمي وراح يكثر من الخطب المؤيدة للإسلام. وفيما كانت فرنسا وانكلترا تتحوان نحو استعمار أجزاء من السلطنة في المغرب العربي ومصر والخليج، اعتمدت ألمانيا نمطاً سلمياً متغلغلة ببطء في جسم الدولة مساندة لفكرة "الجامعة الإسلامية" التي سعى إليها السلطان عبد الحميد الثاني للجم أطماع فرنسا وانكلترا وغيرهما في سلطنته. وأبعد من هذا التغلغل سعت ألمانيا إلى استخدام السلطنة في طموحاتها في شرق أفريقيا والصين، وأثمرت كلّ هذه الجهود في الحرب العالمية الأولى عندما تحالفت السلطنة وألمانيا وليم الثاني ضدّ الحلفاء وكان ما كان مما لا ضرورة للتذكير به، إلا من ناحية واحدة لم يتوقف عندها الباحث من حيث علاقة هذه السياسة بالمجازر التي طالت الأرمن والسريان ومسيحيين آخرين. ويتوقف الكاتب عند مسألة الصهيونية وألمانيا فيبرز تطور الموقف من رافض للمشروع إلى قابل للمستوطنات اليهودية لاعتبارات سياسية وإنسانية إلى تعاطف وحماية للمستوطنات. ونلاحظ أنّ المعطيات الموجزة أعلاه تنظر إلى الموضوع بعين الأرشيف الألماني وكان لا بد من استقراء الأرشيف الفرنسي الذي يقدم معلومات تثري الموضوع وتساهم في تنوع الخلاصات.

هذه المقدمات في الواقع السياسي آلت خلال الحرب الأولى إلى نهج الألمان نهجاً دعائياً مؤيداً للمسلمين وللسلطنة محاولة الإبقاء على الأخيرة مانعة الانفراد في حلّ المسألة الشرقية ومحاولة تجبير طاقات آسيا الصغرى لصالح مشروعها الاقتصادي الصناعي والتجاري ومشاريع سكك الحديد والثروات الباطنية، لذلك نشرت خطاباً سياسياً داعماً للإسلام بما فيه "الجهاد" منشئة مؤسسة "وكالة أخبار الشرق" برئاسة المستشرق ماكس فون اوبنهايم لاستعمال الإسلام سلاحاً في خدمة القضية الألمانية وتأليب المسلمين على دول الحلفاء وإبراز منافع التعامل مع ألمانيا. ومن أبرز المتعاملين اللبنانيين مع المؤسسات الألمانية شكيب أرسلان الذي أصدر 40 مقالاً في ألمانيا التي أقام فيها بين 1917 و1918 داعماً لهذه السياسة. فقد استقطبت الدعاية الألمانية شخصيات إسلامية وعربية لجمع المعلومات وللدعاية، ولكن مشروعها الدعائي، بالرغم من كلّ النقر على الحمى الدينية، لم يقرب المسلمين من السلطنة ومن ألمانيا وهناك أكثر من دليل يسوقه الباحث على هذه النتيجة ونكتفي بما حصل في لبنان وسوريا والعراق والحجاز التي عملت للتخلص من السلطنة.

وضمن هذه الاجواء دفعت حمى الدعاية الإسلامية بعض أنصار "الجامعة الإسلامية" الذين انطلت عليهم حقيقة الموقف الألماني إلى دعوة الامبراطور وليم الثاني، بكلّ سذاجة، إلى اعتناق الإسلام والطلب منه إقناع امبراطور اليابان وشعبه باعتناق الإسلام.

يرى الكاتب أنّ ألمانيا استغلّت الجامعة الإسلامية للتغلغل في الزنجبار الذي كان سلاطينها خاضعين لإشراف انكلترا السياسي والعسكري، فحاولت ألمانيا عقد معاهدة تجارية معها محاولة بذلك استعمار مناطق شرق أفريقيا المواجهة للزنجبار مما أشعل صداماً بين ألمانيا والزنجر، فأدى ذلك إلى تقرب ألمانيا من السلطان عبد الحميد بصفته خليفة لتسهيل المعاملات التجارية. وعندما رأت أن المصلحة تقتضي التفاهم مع انكلترا عقدت تسوية استعمارية معها. وكذلك سعت ألمانيا لإحياء "الجامعة الإسلامية" في المغرب برغم أنّها قد شجعت فرنسا على استعمار تونس ثم المغرب بعد احتلال ألمانيا للأزاس واللورين الفرنسيين. فقد كانت ألمانيا تسعى إلى استغلال "الجامعة الإسلامية" واستغلال السلطان للدخول إلى شرق أفريقيا وجعل علاقتها بالسلطان سوطاً مصلتاً على فرنسا في شمالي أفريقيا.

وفي ثورة "البوكسر" التي اندلعت في الصين عام 1899 وشارك فيها مسلمون ضدّ الأوروبيين في الصين تحت شعار "الموت للمحتلين الأجانب والموظفين الصينيين المرتشين" وعلى رأسهم الأمبراطور، سعت ألمانيا لتوريط السلطنة في القضاء على الثورة وإبعاد المسلمين عنها، ولكن السلطان

لم يتجاوب مع ذلك. وفي الحالات الثلاث المذكورة كان هدف ألمانيا استغلال قوة الإسلام ونفوذ السلطان وروابط "الجامعة الإسلامية" من أجل المصالح الألمانية ضد مصالح فرنسا وانكلترا وغيرها.

ويكرس الباحث الدكتور سنو القسم الثالث من الكتاب لدراسة علاقة ألمانيا السياسة والاقتصادية والثقافية بين 1831 - 1918 في بلاد الشام، فيركز على العلاقة مع القدس واليهود وتهود فلسطين ومشاريع تدويل القدس وخلق مطرانية جديدة انكليزية بروسية في القدس على أمل تنصير اليهود، وهو موضوع أثار حشوية العديد من الباحثين الذين استقرأوا الأرشيف الفرنسي والانكليزي. وهنا يضيف الدكتور سنو رافداً جديداً للموضوع من خلال الأرشيف الألماني، فيمرّ على مشاريع التوطين اليهودية للمنصرين منهم. وبكل الأحوال فقد أثمرت الطروحات، برأينا، لا في توطين اليهود المنتصرين أو المرجو تنصيرهم عند قدومهم إلى فلسطين، بل توطين اليهود الذين بقوا يهوداً.

ويتطرق الباحث إلى المصالح الألمانية في لبنان بين 1831 و1918 من خلال الخلفية التاريخية للعلاقات مع لبنان وابرار المصالح الثقافية والعلمية والإنسانية والموقف من الأحداث في جبل لبنان، وهو موضوع لم يدرس من قبل دراسة وافية من قبل الباحثين بالنسبة لألمانيا على قدر ما جرت دراسته بالنسبة لفرنسا وانكلترا، مع محاولة جديدة لدراسته من خلال الأرشيف النمساوي الذي بدأت تصدر أجزاء عنه في جامعة الكسليك. وطبعاً يفترض أن يمرّ الكاتب على مرور الأباطور وليم الثاني في لبنان واما ذكرته عنه الصحافة العربية فيكشف أسباب الرحلة وأبعادها وتناجها، ودور الألمان في لبنان في الحرب العالمية الأولى، ولكنه لا يتوقف عند ذلك كثيراً، مع أنه يلمح إلى دور الألمان في المجاعة التي أهلكت عشرات الآلاف من سكان الجبل اللبناني كما تُبرز ذلك وثائق الأرشيف الفرنسي والمدونات التي ظهرت في نهاية الحرب الأولى أو تلّتها مباشرة.

بعد هذه الدراسة لعلاقة ألمانيا بالشرق قبل الحرب الأولى ينتقل الكاتب إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية متجاوزاً إلى حدّ ما فترة ما بين الحربين التي سيكرس لها دراسة بحدّ ذاتها على ما يبدو. وخلال هذه الفترة يشرح بدقة وبعمق وبتجرّد كلي ثنائية العلاقة الملتبسة بين ألمانيا بشقيها الغربي والشرقي واسرائيل والدول العربية واقتناص الدول العربية للصراع بين الألمانيتين لجلب ألمانيا الشرقية إلى جانبها رداً على موافقة ألمانيا الاتحادية على ابتزاز اسرائيل لعقدة النقص الألمانية تجاه ما يقال عن "المحرقة النازية" لليهود وللضغوط الأميركية على ألمانيا، بعدما كانت العلاقات على كلّ الصعد على خير ما يرام بين العرب وألمانيا الغربية. وكشف الدكتور سنو أن مصر تعاملت بواقعية في البدء مع موقف ألمانيا الغربية من اسرائيل، خصوصاً أنّ ألمانيا الاتحادية كانت تقدّم مساعدات لمصر للتنمية بشكل مساعدات هبات وحاجات صناعية وبعثات فنية. وكانت مصر على علم بالتعاون العسكري بين ألمانيا الاتحادية واسرائيل. وقد غضّ الرئيس عبد الناصر الطرف عن هذا التعاون واكتفى بالاحتجاج الدبلوماسي مفضلاً بقاء صفقات الأسلحة بعيدة من متناول الرأي العام العربي لأن عبد الناصر كان مدركاً أنّه لا يمكنه استبدال ألمانيا الاتحادية بألمانيا الديمقراطية كمول للمشاريع المصرية وخطط التنمية والخبرات العلمية، ولا كشريك تجاري يشتري القطن المصري. وقد سعت اسرائيل بكلّ قوتها لتدمير هذه العلاقة وذهبت حدّ إغتيال بعض العلماء الألمان العاملين في مصر.

ولقطع ألمانيا الاتحادية صلة ألمانيا الديمقراطية بالعالم واعتبار نفسها خليفة للرايخ الثالث اعتمدت مبدأ "هالشتاين" الذي يقضي بقطع علاقاتها الدبلوماسية بكلّ دولة تعترف ببرلين الشرقية. فنشأ عن ذلك صراع في الوطن العربي وكانت المنطقة العربية أهمّ منطقة لتطبيق المبدأ المذكور. وقد سعت ألمانيا الشرقية إلى إجهاض هذا المبدأ مستغلة مسألة تقديم أسلحة لاسرائيل (صفحة دبابات أم 48) وقد نجم عن ذلك زيارة الرئيس الشرقي فالتر اولبريشت إلى مصر عام 1965 فيما تجنّبت سوريا ولبنان الزيارة. وقابلت ألمانيا الاتحادية هذه الزيارة بإقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل. وبرغم قطع

العلاقات الدبلوماسية مع بون ظلّ التبادل الاقتصادي والتجاري أقوى معها مما هو مع ألمانيا الشرقية التي لم يكن بمقدورها، بإمكاناتها المتواضعة، مبارزة بون.

قبل الستينات ساد نوع من التوازن غير المعلن مع الدولتين الألمانيّتين ولكن الأمر كما رأينا اتخذ منحى مغايراً بعد تسليم الأسلحة لإسرائيل. وبرغم ذلك، وبرغم استمرار قطع العلاقات مع ألمانيا، لم يكن ممكناً الاستغناء عن الدعم الاقتصادي لبون. وبعد انتهاج ألمانيا سياسة متوازنة ألغى حكماً مبدأ "هالشتاين" وسار لبنان في سياسة متوازنة تجاه الألمانيّتين فعمل فقط على انفتاح تجاري لا ثقافي مع ألمانيا الشرقية من دون تناقض مع انفتاحه على الغرب. ولم يتمّ التبادل الدبلوماسي مع الشرقيين إلا سنة 1972 وهي السنة نفسها التي عاد فيها لبنان عن قطع علاقاته مع ألمانيا الغربية سابقاً إرضاء لعبد الناصر.

وتخليداً لذكرى المستشرق "فريتس ستبات" (ت2006) عالم الإسلاميات كرّس الدكتور سنو عدة صفحات لأبراز ما قدّمه للحضارة الإسلامية من دراسات موضوعية علمية نزيهة بعيدة عن التعصّب والانفعال والأحكام المسبقة.

على صعيد المنهجية، يعرف الضالعون في العلم أنّها تقوم على مجموعة ركائز ومداميك لا بدّ منها ليكتمل بنيان الموضوع المراد معالجته، منها التقيّميش والعلوم الموصلة والنقد والعدالة والضبط وتركيب الصيغة العامة والعرض التاريخي. ويمكن القول أنّ الدكتور الباحث عبد الرؤوف سنو قد قَمَش معلوماته خير تقيّميش انطلاقاً من الوثائق الألمانية وهي وثائق تستخدم بكلّ هذه الدقّة والإحاطة لأول مرّة في الأبحاث العربية، وقد أحاط بشكل جيد بالمصادر المنشورة وبالمراجع العربية والألمانية والانكليزية وهو معذور في عدم اطلاعه على الوثائق الفرنسية وإلى حدّ كبير المراجع المنشورة بهذه اللغة. وقد عمل لتوضيح معلوماته بلوحات إحصائية مقدّمة دراسة من ضمن أفق الأبحاث الجديدة التي تتقاطع فيها الثقافة مع الاقتصاد مع الاجتماع مع الثقافة فأحاط إحاطة شاملة بموضوعه الذي لم يأت مجرد سرد لمعلومات منسّقة بل عملاً عميقاً تحليلياً اجتهادياً ساق فيه الكاتب معلوماته بطريقة متسلسلة منطقية هادفة مقدّمة رؤياً بعيدة كلّ البعد عن الأحكام المسبقة والعواطف السياسية.